

ظاهرة فرار الجزائريين من مناهم بكاليدونيا الجديدة
- حالة عزيز بن الشيخ الحداد أمودجا -

The phenomenon of Algerians fleeing their exile in New Caledonia- The case of Aziz bin Al-Sheikh Al-Haddad is an example -

أ.د/محمد السعيد عقيب جامعة الوادي - مخبر بحث التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر maguieb@yahoo.fr	ط/د محمد أمين عمري جامعة الوادي - مخبر بحث التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر amranimohamedamine2019@gmail.com
--	--

تاريخ الاستلام: 2024/04/ 26 تاريخ القبول: 2025/03/ 10 تاريخ النشر: 2025/06/ 03	
الملخص	يتناول هذا المقال بالدراسة والبحث حال الجزائريين في واحدة من المستعمرات العقابية (الجنائية)، والتي أسسها الاستعمار الفرنسي لجعلها قاعدة لتنفيذ إحدى أساليب سياسته، ولتنفيذ العقاب المتمثل في الترحيل والنفي عن بلادهم، نحو مناطق وأراضي غريبة وبعيدة جدا لضمان عدم عودتهم من جديد، والتي جاءت بعد مقاومة عنيفة وشرسة (ثورة 1871م). و سنستعرض كيف تمكن أحد هؤلاء المنفيين (المبعدين) من اختراق كل الحواجز الموضوعة من طرف الاستعمار؟ وكيف تمكن من تجاوز كل العقبات محاولة منه للعودة إلى الجزائر وهو عزيز بن الشيخ الحداد؟.
الكلمات الدالة	ثورة المقراني - الشيخ الحداد - عزيز بن الحداد - المنفى - كاليدونيا الجديدة - الجزائر - فرنسا، المحاكمات، قرار العفو، الطريقة الرحمانية، المقراني، الفرار من المنفى.
Abstract:	This article delves into the study and research on the situation of Algerians in one of the penal colonies established by French colonization. The colony was set up as a base to enforce a punitive policy aimed at the Algerians, involving exile and deportation to distant and foreign lands. This was implemented after a fierce resistance, known as the 1971 revolution. Subsequently, the article reviews archival documents to demonstrate how one of these exiles managed to break through all the barriers imposed by colonial powers, surpassing various punishments in an attempt to return to Algeria. This individual is Aziz Ben Al-Sheikh Al-Haddad.
Keywords:	Al-Maqarni Revolution - Sheikh Al-Haddad - Aziz bin Al-Haddad - exile - New Caledonia - Algeria - France-Trials, Pardon Decision,

Atariqa Alrahmania - Al-Maqrani, Fleeing from Exile

مقدمة:

عبرت المقاومات الشعبية المسلحة خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلادي، عن رفض الجزائريين للاحتلال الفرنسي وسياسته العاشمة ، فكلما دخل الجيش الفرنسي قرية أو دشرة أو دوارا ، إلا وتصدى أهل تلك المنطقة والجهة لأولئك المحتلين بما كان لديهم من وسائل، وسجلت الكثير من الملاحم البطولية التي ألحقت خسائر مادية وبشرية بقوات الفرنسيين، وقد مارس هؤلاء الغزاة سياسة قمع وبطش وفهر ضد حركات المقاومة استخدموا خلالها القتل والتنكيل بمختلف الأساليب القاسية حتى يخضعوا المقاومين ومن ساندتهم من قبائل وعشائر، ولم يكتفوا بذلك بل لجأوا لتهجير ونفي وإبعاد رجال المقاومة إلى المستعمرات العقابية التي أنشأت خصيصا لتنفيذ سياسة العقاب ضد مقاومي سياسية الجيش الفرنسي.

وتمثل ثورة عام 1871م بقيادة المقراني الزعيم العسكري لها ورافقه الشيخ الحداد كزعيم روحي (ديني)، نموذجا في تطبيق سياسة النفي العقابي للجزائريين، كونها شكلت الحادثة التي نقلت الجزائر من مرحلة استعمارية قديمة وتقليدية إلى مرحلة جديدة وحديثة في السياسة الاستعمارية، المؤسسة على قاعدة كولونيالية قاسية، بالإضافة إلى حجم التأثير الذي خلفته على الجزائريين، أو حتى على الاستعمار والامتداد الكبير لها ، لتفتح بذلك رد فعل استعماري قاس جدا بعد قمعها وخمودها ، تجسد في العديد من الممارسات ، كان من بينها النفي (الإبعاد) خارج الجزائر، ليتجدد بذلك رد الفعل الجزائري في رفضها من خلال التمرد عليها، وذلك بالفرار من مراكز النفي هذه.

وقد قامت السلطات الاستعمارية بتخصيص مستعمرات لتنفيذ عقوبة النفي، التي سلطتها على عدد من المقاومين المشاركين في ثورة المقراني والحداد سنة 1871م ، وابعدهم عن بلادهم وعن أهلهم ، ورغم المعاناة والإبعاد إلا أن البعض من أولئك المنفيين لم يستسلموا لذلك الواقع المؤلم، بل حاولوا اختراق السجن العقابي الذي تم نفيهم إليه بكاليدونيا الجديدة، من أجل

استنشاق الحرية من جديد ومحاولة للعودة إلى أرض الوطن، وقد تحدوا السياسة الاستعمارية الفرنسية، من خلال العمل على الفرار من حياة المنفى، وأبرز الأمثلة عن ذلك حالة عزيز بن الشيخ الحداد ، الذي مثلت نموذجا لحالات الفرار التي وقعت من كاليدونيا الجديدة.

وستتطرق للموضوع انطلاقا من الأسئلة التالية:

- ماهي أسباب ومجريات ثورة المقارني ؟ وما النتائج التي أسفرت عنها؟ وماهي العقوبات التي سلطت على قادتها والمشاركين فيها؟ .

- وكيف كان رد فعل المبعد الجزائري اتجاه سياسة النفي الفرنسية لكاليدونيا الجديدة (Nouvelle-Calédonie)؟. وكيف تمكن عزيز بن الشيخ الحداد من الفرار من المنفى؟ وما هي الظروف المساعدة على ذلك؟

ومن الأسباب الذي دفعتنا للعمل على هذا الموضوع ،تسليط الضوء على العمليات التي قام بها الجزائريون للفرار من هذه السجون (المنافي)، رغم ما يتضمنه الأمر من خطورة و مجازفة كبيرة وأيضاً التمرد ضد الاستعمار.

ونستهدف أيضا إبراز نمط من الأنماط المعيشية التي استخدمها الجزائريون للتعايش مع واحدة من الممارسات الاستعمارية المسلطة عليهم، بنفيهم إلى أرض غريبة وبعيدة جدا عن بلادهم التي اعتادوا عليها. كما نحاول التعريف بشخصية عزيز بن الشيخ الحداد وكشف بعض الأسرار والخبائيا حول المحاكمات التي أعقبت ثورة 1871م ، وكذلك الحياة في المنفى، والظروف والعوامل التي ساعدت على الفرار منه.

2- ثورة المقارني : أهم الأسباب ومجريات أحداثها:

منذ احت الجزائر في جويلية 1830م ، وحتى عام 1871م ، كان الجيش الاستعماري الفرنسي ينتهج سياسة محو الأطر الاقتصادية والسياسية التقليدية ⁽¹⁾، وكانت المقاومات الشعبية (الثورات) المتتابعة ، أبرز مثال عن رد الفعل الشعبي الجزائري المسلح والرافض لهذه السياسة مثل ثورة 1871م.

وقد اعتبرت ثورة 1871م من أخطر الانتفاضات التي حدثت منذ الغزو (الاحتلال)، حيث حمل 200.000 من الأهالي السلاح، وقد شملت هذه الحركة منطقة يقطنها 800.000 نسمة⁽²⁾.

وإن مجمل الأوضاع السائدة بالجزائر آنذاك، والمميزة لها قبل الانتفاضة الكبرى لعام 1871م، يمكن اعتبارها ضمن الظروف التي كانت قائمة في ذلك الوقت، والتي أدت بدورها بشكل غير مباشر إلى اندلاع الثورة، وامتدت أغلبها في الفترة ما بين (1860م - 1870م)، حيث مست جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومهدت السبيل لها⁽³⁾.

وقد بدأت علامات تمرد المقراني ضد الفرنسيين بعد تقديمه استقالته في 27 فيفري وتم رفضها من قبل الإدارة الفرنسية الاستعمارية، وجاء الرد برفضها في 3 مارس، لكن المقراني أصر عليها وأكد على قراره مجددا في 9 مارس، وتحدد مرة أخرى رد فعل الإدارة الفرنسية برفضها في 14 مارس، وفي 16 مارس وقع أول هجوم مسلح له، وكان بيرج بوعرييج مطلقا بذلك شرارة الثورة⁽⁴⁾.

وما شجع أكثر على نشوب تلك الثورة عام 1871م، أنه عندما اندلعت الحرب الفرنسية - الألمانية⁽⁵⁾ آنذاك (أي منذ 19 جويلية 1870م) كانت البلاد قد أخذت تتعافى ببطء من ثلاث سنوات من الجفاف والأوبئة التي أثرت عليها⁽⁶⁾.

وبالموازاة مع شروع الباشاغا محمد المقراني فعليا في الثورة في 16 مارس 1871م، عندما زحف بقواته (6 آلاف مجاهد) نحو مدينة برج بوعرييج، فإنه بعد نداء الشيخ الحداد للجهاد مع هذه الثورة ومؤازرتها، فقد لقيت هذه الدعوة استجابة وصدى واسعا وانضمت لها أعداد كبيرة من الجزائريين⁽⁷⁾، و يذكر حول قوة تأثيره هذه، أنه وبعد ثمانية أيام فقط من إعلانة الجهاد حمل السلاح 150 ألف شخص⁽⁸⁾.

وهكذا فقد امتد نفوذ تلك الثورة إلى مناطق عديدة من وسط الجزائر كشرشال و مليانة والمدينة وشرقا إلى الأوراس، بل وحتى إلى الجنوب الشرقي والغربي، وقد كانت ثورة شعبية

عفوية ، وقد كان قائدها العام المقراني ومعه مساعدون آخرون مثل: عزيز بن الشيخ الحداد وشقيق المقراني بومزراق المقراني... وغيرهم.⁽⁹⁾

وإن السر وراء هذا الالتفاف الكبير حول الثورة والانضواء تحت رايتهما بهذا الحشد الكبير في وقت قصير جدا ، كون صاحب هذه الدعوة إلى الجهاد هو الشيخ الحداد، شيخ الطريقة الرحمانية⁽¹⁰⁾، فلطالما قامت الطرق الصوفية بدور فعال في التأثير على نفسية وذهنية المجتمع الجزائري، لأن الزوايا كانت تملك سلطة واسعة ونفوذاً كبيراً قبل الاحتلال الفرنسي - لأن المجتمع الجزائري بالكامل قبل الاحتلال كان غارقاً في التصوف والطريقة -⁽¹¹⁾

ولهذا لا نستغرب أن يستمر دور هذه الزوايا في تحريك هذه الثورات (المقاومات الشعبية) بعد زوال الحكم العثماني، وكان توسع الثورة وانتشارها نحو ربوع مختلفة من الوطن يعني زيادة المعارك وانتشارها أكثر، فقد سجلت الثورة عدة معارك مهمة، فتم الاستيلاء على الأخضرية وذراع الميزان، واقترب الثوار من بودواو، وتوسعت حتى وصلت الحضنة والزيان والأوراس. ووقعت خلالها عمليات سلب ونهب وقتل للمعمرين وكذلك قتل للخونة، وهدم المباني والأبراج الرسمية وقطع خطوط البرق وإضرام النيران والامتناع عن دفع الضرائب وحصار المدن⁽¹²⁾.

إلى درجة أنه في بعض المناطق اضطرت السلطات الاستعمارية إلى حماية المستوطنين الأوروبيين، بنقلهم إلى أماكن أخرى ، فقد تم إجلاء المستوطنين الأوروبيين من الميلية إلى بوسعادة⁽¹³⁾.

وقد مرت الثورة بالعديد من الأحداث ووقعت خلالها الكثير من المواجهات المسلحة، وبرزت فيها شخصيات مهمة يطول الحديث عنها وبما أن الثورة ليست موضوعنا الحالي، فسنكتفي بالمحطات المهمة التي لعبت دوراً في تحول مسار أحداثها.

فإذا كان المقراني قد خاض العديد من المعارك شخصياً خلال الثورة ، فإن في إحداها - وكانت بعد انسحابه من حصار البويرة - وقع في مناوشات مسلحة مع الجنرال تروملي قرب سور الغزلان، توقفت مع منتصف النهار، استغل المقراني ذلك وقام بأداء صلاة الظهر مع

رفاقه، دون أن يدري أن هناك مجموعة من الزواف الفرنسيين يترصدهونه، وبينما هو يصلي أطلقوا عليه النار وسقط شهيدا في 5 ماي 1871م⁽¹⁴⁾.

وقد أخفى شقيقه بومزراق المقراني نبأ وفاته، وتولى زعامة الثورة بعده، رغم أن أمراء الثورة علموا بذلك فيما بعد ، ولكن حدثا كهذا لم يثبطهم واستمروا في مقاومتهم⁽¹⁵⁾، رغم تطور العمل العسكري الفرنسي بالجزائر منذ 5 ماي 1871م بشكل كبير مع وصول الجنود الفرنسيين (بعد نهاية الحرب مع بروسيا- ألمانيا) ، وبالتالي تضاعف الجيش الفرنسي إلى تسعين ألف جندي وضابط⁽¹⁶⁾.

ومن هذا يتبين لنا أن الثورة بعد استشهاد المقراني، أخذت تواجه ترسانة عسكرية فرنسية ضخمة وهائلة ، نتيجة تدعيمها وإمدادها مما سيأثر على سير الثورة ويؤدي إلى دخولها مرحلة الانكماش والتراجع.

فإذا كان لوفاة القائد الرئيسي الحاج مُحمَّد المقراني في 5 ماي 1871م ، تأثير ضئيل على مسار الثورة، فإن استسلام القائد الروحي (الديني) في 13 جويلية 1871م، أدى إلى استسلام معظم قبائل منطقة الزاوة، الذين كانوا قد لبوا وتفاعلوا مع نداء الجهاد، فمنذ هذا التاريخ ، ظل فقط شقيق مُحمَّد المقراني بومزراق المقراني- الذي تولى مهام قيادة الثورة بعد شقيقه الأكبر - مواصلا كفاحه إلى غاية تمكن الفرنسيين من إخماد الثورة نهائيا في 20 جوان 1872م ، حيث تم بعد القبض عليه بجنوب الجزائر⁽¹⁷⁾.

ولم تمر إلا أيام حتى استسلم عبد العزيز الحداد في 30 جوان ، الذي كانت معاركه مرتكزة بشرق جيجل ، ثم تبعه شقيقه مُحمَّد في 2 جويلية، وبعدها استسلم الشيخ مُحمَّد أمزيان الحداد (والدهما) في 13 جويلية من نفس السنة 1872⁽¹⁸⁾.

3- نتائج الثورة وآثارها :

لقد أفرزت ثورة الباشاغا مُحمَّد المقراني والشيخ الحداد، نتائج وآثار عدة ، لكن ما يهمنا هنا، هو انعقاد المحاكمات لمحاسبة المشاركين والمتورطين بها، حيث تمت محاكمة المقاومين بموجب

مبدأين قانونيين، مبدأ المسؤولية الفردية ومبدأ المسؤولية الجماعية⁽¹⁹⁾، وقد تم تقسيم المتهمين إلى مجموعات لتسهيل محاكمتهم، وتم توزيعهم على محاكم قسنطينة والجزائر والبلدية⁽²⁰⁾.

فتوار متيجة و بودواو وشرشال قدموا للمحاكمة بالجزائر في عدة محاضر وجلسات، أشهرها محضر 29 أوت 1872م، والذي اشتمل على 97 متهما، وثوار تيزي وزو وذراع الميزان قدموا لمحكمة قسنطينة (بما فيهم بومزراق والشيخ الحداد وابناه) في محضر 21 سبتمبر 1872م، أما ثوار الجنوب (الصحراء) فقدموا إلى المجالس العسكرية⁽²¹⁾.

وتم الحكم على بومزراق المقراني شقيق مفجر الثورة، وهو في الخامسة والثلاثين من عمره (35 سنة) متزوج وله ولد، حيث وجهت إليه تهم التحريض على الحرب وتجنيد المتمردين والتخريب والحرق⁽²²⁾، وصدر في حقه حكم الإعدام، ولكن الرئيس الفرنسي تدخل وألغاه في 19 أوت 1873م، وعوضه بالنفي إلى كاليدونيا الجديدة⁽²³⁾.

في حين نجد أن بقية أفراد عائلة المقراني قد "... صودرت منهم مساحة قدرت بـ 204.933 هكتار، وعوضت لبعضهم في أماكن بعيدة في شكل إيجار بعدما كانوا ملاكا، على غرار أرملة المقراني وأولادها الذين أجرت لهم إدارة الاحتلال الفرنسي أراضي بضواحي قسنطينة (عين عبيد)"⁽²⁴⁾.

و تمت كذلك محاكمة الشيخ الحداد وابنيه عزيز ومُحمَّد، فالشيخ الحداد ورد في المحضر بأن عمره 80 سنة، متزوج وله ولدان، وتهمته الدعوة إلى القتال وجمع السكان بغرض التمرد والنهب والتخريب، ووجهت لابنه عزيز نفس التهم، وأضيف له أنه شارك بنفسه في العمليات المسلحة وقام بقيادتها، وجاء في المحضر أن عمره 31 عاما، متزوج بثلاث نساء وله 4 أولاد، كما تم توجيه التهم نفسها لأخيه مُحمَّد، الذي ورد في المحضر بأن عمره أربعون عاما (40)، متزوج من ثلاثة نساء وله سبعة أطفال⁽²⁵⁾.

وصدر الحكم بالسجن الانفرادي خمس سنوات على الشيخ الحداد، لكنه لم يبق في السجن إلا خمسة أيام، وتوفي في 29 أفريل 1873م، أما ابنه عزيز فحكم عليه بالنفي إلى كاليدونيا

الجديدة ،وشقيقه مُجَّد حكم عليه بالإعدام لكنه ألغي في 14 أوت 1873م وتم تعويضه بالنفي كذلك ⁽²⁶⁾.

أما عن مصير الطريقة الرحمانية التي كانت تحظى بتأثير كبير على الناس، وكانت الدعوة للجهاد لمريديها أتباعها فتفاعلت حشود غفيرة مع هذه الدعوة -كما رأينا من قبل-، فالاستعمار مارس عليها سياسة الاحتواء ، فباتت "... هي المؤسسات التي ستعتمد عليها الإدارة الفرنسية فيما بعد للعب دور الموصل (fusible) بين الإدارة الفرنسية وبقية أفراد الشعب" ⁽²⁷⁾. ولهذا نجد فيما بعد ببلاد القبائل بأنه قد "...حاول الفرنسيون تمرير قانون التجنيد الإجباري الصادر سنة 1911م، عن طريق الزوايا ، التي طلبوا منها استصدار فتاوى تجيز تجنيد الجزائريين في صفوف الجيش الفرنسي، ورغم رضوخ بعض شيوخ الزوايا للطلب الفرنسي، فإن الشعور العام كان رافضا لهذا القانون" ⁽²⁸⁾.

4- الحكم بالنفي والإبعاد لكلدونيا الجديدة :

بالعودة للحديث عن آل الحداد، نلاحظ أن النفي صدر في حق ابني الشيخ الحداد، أما هذا الأخير فحكم عليه بالسجن فقط، رغم أنه لعب دورا مهما في حشد المجاهدين للثورة ، مستغلا في ذلك مكانته الطرقية وتأثيره الديني، والسبب في ذلك ، كما يتكشف لنا من خلال الوثائق الأرشيفية ، والتي تؤكد بأنه لا يمكن لعقوبة الترحيل (النفي) أن تصدر ضد أي شخص تجاوز سن السبعين (70) (septuagénaires) وقت صدور هذا الحكم ، وإنما تستبدل بعقوبة السجن المؤبد ⁽²⁹⁾، وكما ذكرنا من قبل أن الشيخ الحداد تجاوز السبعين من العمر (بالتحديد 80 سنة) وهذا يفسر عدم الحكم عليه بالمؤبد، نظرا لكبر سنه وسوء حالته الصحية.

وهكذا فالحكم بالنفي لم يقتصر على ابني الحداد فقط ، بل شمل بعض المقاومين المشاركين في ثورة 1871، وبعض من قادتها الآخرين أيضا، وإذا تمعنا في عقوبة النفي كما تذكر الوثائق الأرشيفية، نجد بأن الترحيل : هو عقوبة تطبق حصرا على الجرائم السياسية ، حيث أن صفاته تجعله مؤلما وسيء السمعة أصيلا ودائما، ولكن نظرا لأن قوانين العفو غالبا ما يتم تمريرها لصالح

المدائين السياسيين، فإن ذلك يترتب عنه بأن يغدو الترحيل مؤقتا⁽³⁰⁾ ، مع العلم أن المحاكمات التي عقدت بالجزائر، عقب نهاية الثورة، قد تم تقديم جميع المتهمين فيها على أنهم مجرمون وسراق وناهبون⁽³¹⁾ ، إذن كيف يتم الحكم عليهم بالنفي؟ مع أننا نجد أن هذه العقوبة تسلط على المحكومين السياسيين، وليس على المتهمين بالقتل والسلب والنهب؟.

وبالنظر للأسباب التي تستدعي إصدار أحكام النفي، نجد أنها تنحصر في كل الأفعال التي يكون هدفها التحريض على الحرب الأهلية بالتسليح، من خلال حمل المواطنين أو السكان على تسليح بعضهم البعض، أو إذا أعقبه فعل من أجل التحضير لتنفيذه⁽³²⁾ ، ومن المنظور الفرنسي ، بما أن الجزائر باتت قطعة فرنسية الآن، فإن أي ثورة أو مقاومة ضدهم تعتبر تحريض على حرب أهلية وإشاعة للفوضى ، ولهذا استوجب الأمر إصدار أحكام بالنفي.

وتنفيذا للأحكام الصادرة تم نقل الجزائريين إلى مناهم بكاليدونيا الجديدة ابتداء من 1874م، وسمح لهم بأن ينقلوا بعضا من أغراضهم، معظمها متعلقة بملابسهم وأشياء أخرى بسيطة، وكانوا قد خضعوا للفحص الطبي قبل أن يسمح لهم بركوب السفن، للتأكد من قدرتهم على تحمل مشاق السفر، ودامت بعض الرحلات 5 أشهر كاملة، وتطلب نقلهم إلى كاليدونيا الجديدة ، 4 سفن وعدة قوافل ، استمرت كلها ما بين 1874م-1877م⁽³³⁾ ، مع العلم أنه قد تم حبسهم قبل ذلك بفرنسا كمنفى مؤقت، قبل أن يتم نقلهم إلى كاليدونيا الجديدة⁽³⁴⁾.

ومنذ وصول الجزائريين إلى كاليدونيا الجديدة ، تم اعتقالهم وحجزهم في مخيم خاص بهم من أصل خمس مخيمات كانت موجودة آنذاك ، سيعرف فيما بعد بمعسكر العرب ، حيث كانت الأوضاع في هذه المخيمات مزرية للغاية ، من الحصص الغذائية المنخفضة والرديئة ، إلى تسجيل بعض حالات الوفاة ، والعيش داخل أكواخ من القش والطين ، قاموا ببنائها بأنفسهم ، حتى تم توظيفهم في الأخير بالأشغال الشاقة ، عندما أخذت إدارة السجن في إنجاز أعمال البنية التحتية (بناء مستشفى وطرق وخزان مياه...)، وقد شاركوا فيها مقابل أجر رمزي⁽³⁵⁾.

وتشير الوثائق بأن المحكوم عليهم مجبرون على العمل ، ويقتطع من ناتج أعمالهم جزأين ، أحدهما يستخدم لفائدة الدولة لإعالتهم ، أما الآخر فيضاف إلى المبالغ التي جلبوها وقت حبسهم ، ويشكل بذلك المدخرات التي يتم منحها للرجل المحكوم عليه يوم يتم الإفراج عنه، وكان يحظر على المحكوم عليهم أن يكون لديهم أموال وجواهر وأشياء مماثلة لها.⁽³⁶⁾

وخلال هذه المرحلة (مرحلة الاعتقال بالمعسكر وممارسة الأعمال الشاقة) بالكاد وصلتنا معلومات عن عزيز بن الشيخ الحداد وعن حالته والتي نرجح فيها أن حالته لم تكن تختلف عن بقية المنفيين الجزائريين . لكن تطور الأحداث داخل كاليديونيا عجل بتطور حالة الجزائريين هناك ففي سنة 1878م، نشبت ثورة الكاناك (السكان الأصليين بكاليديونيا الجديدة) ضد الاستعمار الفرنسي وتحركت إدارة الاحتلال لقمعها وتم تجنيد السجناء لتقديم المساعدة، وكان المنفيون الجزائريون مجندون بالجيش الفرنسي ، وقد شكلوا رتلا عسكريا مكونا من 40 شخصا ، ساعدوا على مجابهة الثورة.⁽³⁷⁾

ورغم أننا لا نجد أي ذكر لعزيز بن الشيخ الحداد خلال وقوع هذه الأحداث ، لكن بالمقابل نجد أن بومزراق المقراني قد كان قائدا لمجموعة وهي مجموعة المستطلعين (الكشافة)⁽³⁸⁾

مع ذلك فإن فرنسا أفلحت في الأخير في قمع الثورة (التمرد)، رغم ما خلفته من خسائر مادية كبيرة ورعب واضطراب في الأنفس، وشرعت إدارة الاحتلال في مشاريع إعادة البناء وسافر العديد من المهاجرين (المستوطنين) الفرنسيين إلى فرنسا من أجل الحصول على تعويضات على الخسائر التي تعرضوا لها.⁽³⁹⁾

5- نبذة عن حياة عزيز بن الحداد:

ولد في حوالي سنة 1842م اعتمادا على عريضة الاتهام التي وجهت له من قبل محكمة الجنايات بقسنطينة أثناء محاكمته سنة 1873م، والتي جاء فيها بأنه يبلغ من العمر واحدا وثلاثين عاما... أما مكان ولادته فهو قرية " أحدادن " بصدوق ولاية بجاية حاليا، من عائلة عريقة استقرت بالمنطقة منذ قرون وفي ذلك قال: ((مسقط راسنا الأصلي وبلادنا ، هي قرية

صدوق الفوقانية، سكنها ابنا عن أب منذ حوالي أربعمئة عام، وأصلنا وقبيلتنا وآباؤنا معروفون جيدا)) ، وامتهنت عائلته الحدادة واحترفوها حتى صاروا معروفين بها وتوارثوها أبا عن جد. (40)

وظلت عائلة الحداد لفترة طويلة من الزمن تتمتع بمكانة روحية كبيرة في بلاد القبائل بشكل خاص وفي الكثير من الجهات في الوطن بصورة عامة، باعتبارها المشرفة على الزاوية الرحمانية في صدوق والتي تنتسب إليها كل الزوايا الرحمانية المنتشرة في مختلف أنحاء البلاد. ولم تكن العائلة تحوز على أملاك اقطاعية كبيرة مثل العائلات الأرستقراطية الكبرى، فقد كانت تعتمد بالأساس على هدايا أتباعها والأوقاف التي كانوا يوقفونها لزوايتها ولشيخها، ولا شك أن سي عزيز قد استفاد كثيرا من هذا الوضع العائلي الجيد ، المساعد على تنشئة اجتماعية حسنة تسمح له بإبراز قدراته وطموحاته الشخصية مبكرا⁽⁴¹⁾.

ويعد عبد العزيز (عزيز) الحداد من شخصيات ثورة 1871، وكان حينها في سن الكهولة الأولى، ومن رجال الدين والدنيا، كان خليفة والده في الطريقة الرحمانية ومحل تقدير الإخوان الرحانيين، وكان من علماء الوقت أيضا، ويبدو أنه كان على صلة قريبة بالفرنسيين قبل الثورة ، فقد كان له أصدقاء منهم، وكان يحسن لغتهم⁽⁴²⁾.

ويظهر أن الشيخ عزيز حاز قدرا من المواهب والإمكانات الذاتية ، أهله للحصول على درجة من العلم والثقافة ، خاصة وأنه من المعلوم أن تربيته في الحضر الصوفي للطريقة الرحمانية يجعل منه يعيش في هذا الوسط الملازم لتعلم القرآن والمتون وحتى الأحاديث النبوية الشريفة وربما حتى الأسانيد المختلفة ، إضافة إلى الصفات الشخصية التي جعلت منه يخلف أباه على رأس الطريقة.

وما إن اندلعت ثورة المقراني حتى انخرط عبد العزيز (عزيز) في غمارها وكان من كبار قادتها ويقول عن ذلك سعد الله: " كان عبد العزيز من دعاة الجهاد الأوائل ، وكان يجند الأتباع إلى جانب المقراني قبل أن يعلن والده الجهاد رسميا، وظل يرأسل القادة شخصا ، أمثال ابن علي الشريف ، وعائلة أوقاسي ، وكان عبد العزيز من الذين تلقوا رسائل محي الدين بن الأمير عبد

القادر ، ورغم أنه كان من رجال الدين فقد كان فارسا مغوارا وخاض معارك عديدة وشهد على ذلك خصومه" (43).

ومشاركته الفعالة في الثورة جعلت من السلطات الفرنسية ، تسلط عليه العقوبة التي مست قادة الثورة ، والمنخرطين فيها والتي تمثلت في النفي إلى الجزيرة العقابية كاليديونيا الجديدة، ورغم هذا لم يستسلم عبد العزيز للواقع الذي فرض عليه من طرف السلطات الفرنسية ، بل عمل على الفرار من منفاه وتمكن من تحقيق هدفه. فكيف استطاع تنفيذ الهروب من منفاه؟

6- التخطيط للهروب من المنفى والتنفيذ:

بعد الثورة التي وقعت بكاليديونيا الجديدة كانت فرنسا فيما بين 1879م و1880م، أصدرت قرارا بالعفو وإطلاق سراح المنفيين واستثنى الجزائريين (44) ومن المؤكد أن الأمر خلف استياء كبيرا على نفسيتهم بما فيهم عزيز بن الشيخ الحداد ، الذي وبعد الانتظار لبضعة أشهر تبين له أن هذا العفو لن يأتي، فاتخذ قراره بالفرار ولم يبق أمامه سوى أن يضع خطة لتحقيق ذلك ، مع أن مجاله للمناورة محدودا وكان له عدد قليل من الأصدقاء. (45)

مع العلم أنه بعد أن صدر العفو بحق المنفيين الفرنسيين دون الجزائريين، فإن هؤلاء الكومونيين (46) منذ عودتهم إلى بلادهم شرعوا في الدفاع عن الجزائريين الذين بقوا في المنفى بكاليديونيا و طالبوا بالإفراج عنهم و إعادتهم إلى الجزائر و العفو عنهم تماما كما حدث معهم، و حاولوا ايصال صوتهم هناك بفرنسا. (47)

لكننا نرجح هنا على الرغم من أن الجزائريين لم يمسسهم قرار العفو، إلا أنهم وبعد مساندتهم لفرنسا في ثورة الكانك عام 1878 م، و تقديمهم يد المساعدة لها قد حصلوا على بعض الامتيازات هناك بجزيرة كاليديونيا حسنت من ظروف اعتقالهم و خففت الضغط قليلا عليهم .

فكما نجد في الوثائق أن للمبعدين البسطاء حريتهم التي تقيدهم فيها فقط الاحتياطات اللازمة لمنع الهروب واستتاب الأمن و حسن النظام ، وكان المحكوم عليهم بالترحيل في سياج

محسن يتمتعون بحرية تتناسب مع الحاجة لضمان الوصاية على شخصهم و الحفاظ على النظام حيث يخضعون لنظام الشرطة و المراقبة⁽⁴⁸⁾.

و من هذا يتبين لنا أن الجزائريين بكاليدونيا باتوا ضمن المرحلين البسطاء لأنه بعد أن تتبعنا مراحل و خطوات فرار الشيخ عزيز بن الشيخ الحداد تبين لنا أن نشاطه وحياته على الجزيرة و تحركاته هي التي ساعدته على الهرب، و التي لا يمكن أن تتوفر لأي سجين منفي إلا إذا كان في حالة ترحيل بسيط.

وقد حظي المنفيين البسطاء بالمزايا التالية على المرحلين في سياج محسن : أولا يملكون الحق الكامل بأن يتمتعوا بحقوقهم المدنية في مكان الترحيل. و ثانيا من المحتمل أن يصرح لهم بإدارة الممتلكات التي يمتلكونها في فرنسا بأنفسهم⁽⁴⁹⁾.

ورغم أن الجزائريين لم يتمكنوا من إدارة أملاكهم من كاليدونيا لأن كل ما تركوه بالجزائر قد تمت مصادرتة بعد نهاية الثورة ، و أيضا لأن الوثائق تنص على إدارة الأملاك داخل فرنسا (الوطن الأم) وليس فرنسا الامبراطورية بكاملها (المستعمرات غير معنية إذن) ولكن تمتع الجزائريين بالحقوق المدنية كالنقل ، التملك وغيرها ، فخلقت بذلك جو من الحرية لعزير بن الشيخ الحداد لتنفيذ مخططة . وقد بعث عزيز رسالة الى الحاكم العام بالجزائر التمس فيها طلبا بانضمام 14 فرد من أفراد عائلته له بكاليدونيا، وأعرب الحاكم العام عن تأييده لهذه الفكرة في رسالة وجهها إلى وزير البحرية والمستعمرات⁽⁵⁰⁾.

وتشير الوثائق التي عثرنا عليها بأنه يمكن للمحكوم (المنفي) أن تلتحق زوجته و أطفاله به حتى أن الحكومة يجب أن تهتم بالأمر، و ذلك في حدود الميزانية المتاحة لذلك من أجل ضمان تكاليف نقلهم⁽⁵¹⁾.

ولم يتم ذلك لعزير بن الشيخ الحداد مما يوضح ميز الإدارة الاستعمارية و عنصريتها اتجاه المساجين و المنفيين، التي ظلت تمارس كل أنواع الظلم ضدهم حتى وهم خارج وطنهم و لم تسمح بنقل عائلاتهم رغم امتلاكهم الحق في ذلك - حسب ما جاءت به الوثيقة - و يبدووا

لنا أن هذا كان سببا ودافعا آخر - إضافة إلى قرار الإدارة الاستعمارية التي أصدرت العفو في حق المنفيين الفرنسيين دون الجزائريين - لعزیز بن الشیخ الحداد للتفكير جديا في الهرب .

و لقد سجلت العديد من المحاولات بالفرار حتى أن: " نسبة الفرار كانت كبيرة فهي تمثل خمس عدد المهاجرين ... ولكن الهرب لا يعني الحرية و إنما مغادرة سجن ، فالمحاولة لم تكن ناجحة بالنسبة للجميع"⁽⁵²⁾ بمعنى أن هناك من أفلحوا في اختراق الجزيرة (كاليدونيا الجديدة) لكنهم ظلوا تحت الملاحقة و المتابعة الفرنسية ، ما شكل مشكلة لهم في حياتهم الحرة حتى تمت إعادتهم في النهاية إلى المكان الذي هربوا منه ، ومن ذلك يمكن إدراج كل هذا كدافع أو كسبب من الأسباب التي دفعت بعزیز بن الشیخ الحداد للتفكير في الهرب من المنفى .

و كان عزیز خلال فترة الإقامة بنوميا (عاصمة كاليدونيا الجديدة) قد تعرف على موظف تجاري يدعى ليزون (Lison) ، كان قد عاش فترة بالجزائر من قبل ، وبدأت العلاقات تتوطد بينهما أكثر فأكثر و زادت اللقاءات بينهما بمرور الوقت ، كل هذا بتشجيع من إدارة السجن التي كانت تشك به و بعثت ليزون هذا كمخبر و مهندس ، ولما قويت الثقة بينهما أسر له عزیز بأنه يفكر بالهرب، ما جعل الإدارة بكاليدونيا تضيق على الجزائريين و تزيد من تدابير الرقابة ، وكل هذا لأنها منذ البداية كانت تشك به و تعتبر تظاهره بالاستسلام و التسليم بمصيره هو استراتيجية ومراوغة ، لكن ما حدث لم يشن عزیز بن الشیخ الحداد و لم يمنعه عن تنفيذ رأيه⁽⁵³⁾.

ويبدو أن عزیز بن الشیخ الحداد كان يعرف المخاطر ، لكنه أيضا كان يعرف أن البعض تمكنوا من الفرار وبعد تقييمه للايجابيات و السلبيات اختار الهروب بقدر ما هو مخوف بالمخاطر⁽⁵⁴⁾ . لكن إذا كان تحت المراقبة من قبل سلطات الاحتلال و أسر إلى مخبر الإدارة الفرنسية بأنه ينوي الهرب فلماذا لم تلق السلطات الفرنسية القبض عليه و تضعه خلف القضبان ؟ . يبدو لنا من خلال المعلومات التي تضمنتها بعض الوثائق حول طبيعة النفي البسيط، أن الجزائريين كانت لهم شبه حرية على الجزيرة هناك كما ينص عليها قانون النفي لهذا لم تستطع

السلطات القبض عليه ، كما أنه كان ذكيا في التعامل مع الأمر فرغم أنه أسر للبيزنطيين و كاشفه بالحقيقة لكن لم يصدر منه أي أمر أو تصرف يثير الريبة منتظرا الفرصة المواتية لذلك . و قبل أن يمضي بعيدا في عملياته هذه ، قام قبل كل شيء بعملية تحويل (انتقال أو سفر) لتأخير أي تفتيش من قبل السلطات بكاليدونيا عليه، لذلك فقد ذهب و اشترى برتقالا من مزرعة (Yahoue)، وكان يخطط أيضا للذهاب إلى داخل الجزيرة للحصول على الماشية وبعد ملاحظة غيابه في اليوم المتفق عليه (أي في اليوم الذي من المفترض أنه عاد فيه من سفره) لشراء البرتقال انطلقت عملياته البحث للعثور عليه، لكن كان ذلك بعد فوات الأوان، لأن عزيز كان بالفعل في البحر بعيدا عن الساحل الكاليدوني أي في طريقه إلى الحرية ، ولم يغادر تراب كاليدونيا الجديدة إلا في شهر أبريل⁽⁵⁵⁾.

ولتلبية احتياجاته خلال مدة هذا الهروب حتى يكون هروبا ناجحا ، احتاط لذلك وكان حيث حصل على مبلغ من المال من شقيقه مُجَّد و أبناء وطنه الآخرين ، وفي الأول من أبريل من عام 1881م غادر كاليدونيا الجديدة باستخدام قوارب خفيفة للتنقل من جزيرة إلى أخرى ، حتى وصل إلى نيوزيلندة ثم سيدني بأستراليا، ومنها استقل باخرة للسفر إلى مصر عبر قناة السويس ، قبل أن يصل إلى الحجاز (شبه الجزيرة العربية)⁽⁵⁶⁾ .

ولسنا متأكدين و لم نجد كتابات أو أدلة حول ما إذا كان الجزائريون المنفيون هناك بكاليدونيا الجديدة على علم بنيتهم الهرب و تخطيطه له و الشروع في تنفيذه ، أم أنهم لم يكن لهم أي علم بذلك أبدا؟ و إن كان هناك البعض منهم على علم هل شاركوا بذلك و ساعدوه أم أنهم امتنعوا عن ذلك أو ربما لم يستطيعوا؟. فليس هناك حول هذه النقطة سوى ما يذكر يحي بوعزيز بقوله : "أما أخوه مُجَّد فبقي هناك إذ رفض أن يشترك في المغامرة قائلا له : يكفيني ما أصابني من جراء الاستماع إليك "⁽⁵⁷⁾ وهو ما يشير إلى أن شقيقه مُجَّد كان على علم بنيتهم الهرب و أنه يعمل و يهيب لذلك سرا لكنه رفض أن يهرب معه، و فضل البقاء بكاليدونيا الجديدة خوفا من أن يقع في مشاكل أخرى أو ربما ظنا منه استحالة تحقيق ذلك .

ولم تكن حالة عزيز الحداد هي حالة الفرار الوحيدة للجزائريين من كاليدونيا الجديدة ، حيث نجد أن إدارة السجن قد سجلت العديد من الحالات المماثلة امتدت ما بين 1866م و 1895م وجميعها كانت عمليات فرار فردية⁽⁵⁸⁾ .

وذكر أن بمقابل بعض محاولات الفرار التي نجحت ، كانت محاولات أخرى قد أخفقت، ولذلك مع تزايد هذه المحاولات قرر حاكم كاليدونيا الجديدة و بموافقة وزير المستعمرات تغيير زي المحكومين هناك، و استخدام مستحضرا طبيعيا يجعل لون البشرة بنيا محمرا لتسهيل عملية كشفهم و التعرف عليهم.⁽⁵⁹⁾

ولا نستطيع أن نجزم بالتحديد إن كانت محاولة عزيز بن الشيخ الحداد هي أول عملية فرار ناجحة جزائري خارج كاليدونيا الجديدة ، أم أن هناك محاولات ناجحة قد سبقتها أو ربما هناك محاولات ولكن باءت بالفشل ، أو لم تكن هناك محاولات فرار أصلا قبل هذه .

" أما اخوه الشيخ محمد فقد بقي بجزيرة كاليدونيا يعيش حياة الدعة و الهدوء وفي عام 1881م كان من بين الذين وقعوا على رسالة إلى رئيس الجمهورية الفرنسية بتاريخ جوان يطلبون العفو، و وكان من بينهم أيضا بومرزاق ، ولم يتضح مصيره بعد ذلك و الأقرب أنه توفي هناك لأن ذكره في هذا البلد غير موجود و غير معروف " ⁽⁶⁰⁾

ويذكر يحي بوعزيز معلومات وصلته حول فرار عزيز بن الشيخ الحداد استقاها من حفيد الشيخ عزيز : عبد المالك ، (حصل عليها بواسطة الدكتور محمد الهادي الحسيني)، يقول : ((أن الشيخ عزيز اتصل بأحد الحراس ورشاه بـ 2000 فرنك ، وبذلك تمكن من الصعود على متن سفينة بريطانية تحمل الزيت كانت وجهتها استراليا))⁽⁶¹⁾ .

في حين نجد كتابات أخرى حول ما يرويها عزيز بنفسه قائلا : " في شهر أفريل قررت المغادرة دون إذن و بدون نقود و دون أن أعرف (افهم) انا ايضا ، حتى وجدت نفسي ملقيا في وسط آخر وبين أناس وحده الله من جعلني أهرب منهم ، وعندما غادرت كاليدونيا سافرت أولا على متن قوارب صغيرة من جزيرة إلى أخرى عبر بحر رهيب ولم أصدق أنني قد نجوت بحياتي حتى وصلت إلى نيوزيلنده ثم بعد ذلك ركبت الباخرة إلى سيدني " ⁽⁶²⁾

مع العلم أن استراليا حتى نهاية القرن الثامن عشر (18م) كانت تعتبر مستعمرة عقابية للمحكوم عليهم داخل الامبراطورية البريطانية و يتم نفي أصحاب السجلات الاجرامية إليها، وكان الكثير من الفارين من كاليدونيا الجديدة يلجأون إليها، وكانت هناك معاهدة متبادلة بين فرنسا و بريطانيا بخصوص تبادل المجرمين الفارين، و اعتبر الفارون الجزائريون فرنسيين وتنطبق عليهم كل قوانين التسليم⁽⁶³⁾.

واكتشف عزيز أن اللغة المتداولة هناك هي الإنجليزية التي سمع بها لأول مرة عند الكومونيين، ووجد حينها صعوبة في التواصل لغويا معهم لأنه لا يجيد هذه اللغة لولا وجود بعض الفرنسيين المقيمين هناك⁽⁶⁴⁾. وهكذا فقد تضاف هذه المسألة لمختلف المشاكل و العراقيل و الصعوبات التي واجهت عزيز بن الشيخ الحداد أثناء عملية فراره من كاليدونيا الجديدة، و التي تمثلت في الحراسة الفرنسية المشددة حول الجزيرة و هيجان البحر مما يعرضه لخطر الغرق هناك، وكذلك انتشار اللصوص و المجرمين و القتل بكثرة في المنطقة و احتمال اكتشاف أمره بأستراليا و تسليمه للسلطات الفرنسية، و ايضا مشكل اللغة و التواصل مع الناس كونه لا يجيد اللغة الانجليزية وهي اللغة المستخدمة في كل من استراليا و نيوزيلنده.

وبعد استراليا فإننا نجد الكتابات التاريخية التي تطرقت لهذه الحادثة التاريخية متفقة على الوجهات التي سلكها بعد ذلك و لا يوجد أي اختلاف فيها - حسب اطلاعنا-، فكما يذكر يحي بوعزيز أنه من استراليا توجه على متن سفينة أخرى إلى عدن و من عدن استقل سفينة تركية أوصلته إلى جدة، ومن جدة توجه إلى مكة المكرمة، حيث استقر هناك و اعتكف على التعبد و الطاعة و كان يلتقي بالحجاج الجزائريين و يسألهم عن أخبار الوطن و يرسل معهم الرسائل إلى أصدقائه و أصدقاء والده⁽⁶⁵⁾. ولا نملك بالضبط التواريخ أو السنوات بالتحديد في انتقاله و سفره في هذه الأماكن و متى وصل إليها؟ و متى غادرها؟ لكن من الممكن أنها ليست بعيدة كثيرا عن تاريخ فراره من كاليدونيا الجديدة افريل 1881م.

ومن الواضح أيضا أن السلطات الفرنسية بكاليدونيا لما لاحظت فقدان أثر عزيز بن الشيخ الحديد ثم التأكد من فراره كان الأوان قد فات للقبض عليه، لكن ظل اسمه ضمن الأسماء المطلوبة عند الفرنسيين و سيجري البحث و التحري حوله ويمنع عليه دخول الجزائر .

وخلال عقد الثمانينيات من القرن (19م) و الذي قضاه عزيز بن الشيخ الحداد بالحجاز في شبه الجزيرة العربية حاول الحصول على عفو له و الإذن بدخول الجزائر، لكن ذلك لم يكن حتى عقد التسعينيات حيث حصل له أحد أبنائه على إذن العفو فعاد عن طريق فرنسا⁽⁶⁶⁾.

و عند وصوله إلى الحجاز اتصل بالقنصل الفرنسي بجدة ، وحدث مع مرور الوقت أن عالم آثار فرنسي كان يقوم بالتنقيب هناك و وجد صخرًا أثريا وفي الطريق عندما كان ينقله تعرض لهجوم من اللصوص ففقد العالم و الصخر الأثري، و استعانت القنصلية بعزيز لإيجادهما ، وفعلا و بفضل المكانة التي كان يحظى بها استطاع العثور على جثة العالم الفرنسي وعلى الصخر الأثري و إعادتهما إلى القنصل الفرنسي⁽⁶⁷⁾.

وهكذا فإنه من الممكن أن مثل هذه الأعمال قد ساهمت في صدور العفو عنه ، و نستنتج أيضا أن عزيز بن الشيخ الحداد أراد الحفاظ على علاقات طيبة بينه وبين السلطات الفرنسية لعلها تسمح له بالدخول للجزائر و عودته إلى أرض أجداده .

ويذكر أنه خلال اقامته بالحجاز (مكة المكرمة) تزوج من أمة حبشية و أنجب منها ولدين ، وقد أعتقها بالسويس (مصر)، في طريقه عندما كان متوجها نحو فرنسا⁽⁶⁸⁾.

و ما أن صدر في حقه العفو حتى ذهب عزيز بن الشيخ الحداد إلى باريس للمطالبة باسترجاع ممتلكاته (التي كانت قد صودرت بعد ثورة 1871م)، و أقام هناك مع صديقه ورفيقه السابق في المنفى بكاليدونيا الصحفي أوجين مورو - Eugène Mourote - في المنزل الحامل للرقم 45 بشارع مينيلي مونتون مقابل مقبرة للأب لاشيز (Le Père La Chaise)، وهذا المكان بالتحديد يعتبر مكانا أسطوريا بالنسبة لثوار كومونة باريس، وظل هناك حتى مرض فجأة و توفي في 22 اوت 1895م⁽⁶⁹⁾.

و لما صدر العفو في حق الشيخ عزيز أخبرت السلطات الاستعمارية أحد قياد صدوق (مسقط رأس عزيز) بأن لا يسمح له بالدخول لها خوفا من قيام و نشوب ثورة أخرى مماثلة لثورة عام 1871م فتم استقدامه لفرنسا حيث تم تسميته هناك⁽⁷⁰⁾.

وحول مسألة تسميته وتصفيته من قبل الاستعمار، فإننا لا نجد لها ذكرا فيما تمكنا من الاطلاع عليه من الكتابات، ويذكر يحي بوعزيز حول وفاته أنه بفرنسا: ((... التقاه بعض رفاقه السابقين بكاليدونيا صحفي لازمه طول مدة إقامته بباريس، و حضر وفاته في الدار التي يسكنها بشارع مينلي مونتون Rue Menili Monton و أخذ له صورة و هو ميت على فراشه و كتب عليها توفي يوم 1895/08/21م في باريس))⁽⁷¹⁾.

وجاء أن أصدقاءه السابقين في المنفى (الكومونيين) اجتمعوا بالهراوات من أجل إجبار السلطات لإعادته للجزائر من أجل دفنه لأنه كان يملك الكثير من المال⁽⁷²⁾ ما يعني أنه يستطيع تحمل مصاريف نقله و إعادة جثمانه إلى أرض الوطن.

ولما سمع ابنه صالح نبأ وفاته سافر إلى فرنسا رفقة أحد رفاقه من صدوق لإحضار جثته و دفنها بالجزائر، ووقد تمكن من إحضاره على متن سفينة كانت متوجهة نحو الجزائر، ولما سمع اهله والبعض ممن يعرف بذلك احتشدوا لاستقباله فخافت السلطات الاستعمارية من وقوع صدام بالميناء بين المتجمهرين و قواتها، فغيرت مسار السفينة نحو سكيكدة، ولم يدفن بصدوق و إنما دفن بقسنطينة قرب والده⁽⁷³⁾.

وحول مصير ابنه من زوجته الحبشية، اللذان تركهما في مكة فقد جاء بهما أخوه محمد الصالح إلى صدوق و هما مراهقان و قد توفي الولد في حدود عام 1935م دون أن يكون متزوجا، أما البنت وتسمى خديجة فقد تزوجت زواجا فاشلا و عاشت في دار الشيخ عبد المالك ابن أخيها حتى توفيت⁽⁷⁴⁾.

ولم يتم إعادة دفن رفات عزيز و والده في صدوق إلا في الخامس من جويلية 2009م حيث أقيم احتفالا رسميا وشيد نصبا تذكاريًا تكريما لهما، وقد تم التخطيط لإقامة و انشاء قبر تذكاري ثالث يحمل اسم محمد شقيقه الذي اختفى هناك بكاليدونيا الجديدة⁽⁷⁵⁾. هكذا فإن عزيز

بن الشيخ الحداد ظل متعلقا بوطنه (الجزائر) طيلة فترة منفاه ، ولم تفتّر عزيمته ولم ينطفأ طموحه في تحقيق الفرار من المنفى والعودة للوطن، واستخدم كل السبل والطرق و تكبد كل المشاق ، وواجه الصعوبات والمشاكل من أجل ذلك ، لكنه عاد إليه وهو ميت ليدفن في تراب و أرض أجداده ، و حالة عزيز بن الشيخ الحداد هي حالة من بين العديد من الحالات التي عاشها المنفيون الجزائريون بالمستوطنات العقابية سواء في كاليدونيا الجديدة أو غايان (française Guyane) أو غيرها، الذين قاموا بالفرار من ذلك السجن الجنائي (المنفى) لأجل العودة إلى أرض الوطن و ما قاسوه في طريق العودة ، ودفعوا ثمننا غاليا نتيجة مقاومتهم ودفاعهم عن بلادهم ضد الاستعمار .

7- الخاتمة :

لقد كان النفي و الإبعاد خارج الوطن أحد أساليب السياسة القمعية الرهيبة التي مارسها الاستعمار الفرنسي بالجزائر ضد الجزائريين من رضوخهم وقمع الثورات والمقاومات الشعبية التي شهدتها الجزائر خلال القرن التاسع عشر.

و يمكن اعتبار ثورة الباشاغا محمد المقراني و الشيخ الحداد عام 1871م واحدة من أقوى الثورات الشعبية التي قامت بالجزائر، وما يبين ذلك قدرتها على حشد كم هائل من المجاهدين في ظرف قياسي قصير جدا ، ورغم أن معارك قادتها تركزت بمنطقة القبائل (بلاد الزواوة) ومجانة ، فإنها امتدت في نطاقها الجغرافي لتشمل الكثير من المناطق . وعرفت مشاركة الكثير من الجزائريين من أنصار الطريقة الرحمانية وغيرها .

و لقد أذنت نهاية ثورة عام 1871م (ثورة المقراني و الشيخ الحداد) و أفولها ببداية عهد استعماري جديد بالجزائر، ودخول مرحلة من الاحتلال طابعها سيطرة و نفوذ الكولون.

وإذا كان النفي عقوبة موجودة بالقانون الفرنسي حتى قبل 1871م تطبقها فرنسا على كل من يحاول زعزعة النظام وتهديده ، فإن الحكم بها على الثوار بعد ثورة 1871م ، يظهر استخدام السلطة الفرنسية لأسلوبا آخر في يعكس مدى درجة خطورة و تأثير هذه الثورة بالنسبة للاستعمار و الأهم من ذلك فعالية هذه العقوبة (الحكم الصادر) و تأثيره ، اذ لم

نسجل بعد لك قيام أي ثورة بالجزائر تحمل نفس التأثير و الوزن و الامتداد ما عدا ثورة الشيخ بوعمامة (1881م _ 1904م) وهذا يكشف لنا مدى الدور الذي لعبته عقوبة النفي و التأثير النفسي و الاجتماعي الذي خلفته على الجزائريين ، و كيف جعلت بعض منهم يكونون للاستعمار و لسياسته.

وقد خلفت عقوبة النفي آثارا وخيمة و خطيرة على الجزائريين الذين وقع عليهم الترحيل و الابعاد خارج الوطن ، تجسد كل ذلك من خلال مواقفهم هناك بالمنفى بكاليدونيا الجديدة ، مثل ثورة الكانك 1878م، أو الرسالة التي كتبها بومرزاق المقراني و محمد بن الشيخ الحداد يتوسلون فيها العفو عنهم لدى السلطات الفرنسية ، رغم أنهم كانوا من قبل زعماء للمقاومات الشعبية و الثورات ، إن ما جعلهم يجنحون لموقف مثل هذا طمعا منهم في إرضاء الاستعمار و مهادنته ، وهذا بسبب تأثير الضغط النفسي الكبير الذي خلفته عقوبة النفي عليهم .

ولقد استمر التمرد ضد الاستعمار الفرنسي وسياسته من قبل الجزائريين حتى وهم خارج أرض الوطن، أي بأرض المنفى سواء كان كاليدونيا الجديدة أو أي مستعمرة عقابية أخرى (أي سجن جنائي اخر) ، حيث تمثل حالة عزيز بن الشيخ الحداد في الفرار و اختراق السجن الكاليدوني، عملية مقاومة و تمرد بصورة جديدة ضد الاستعمار، لعل الحافز و الدافع الاساسي و المحرك فيها هو الشوق و الحنين و التعلق الكبير بأرض الاجداد (الجزائر) رغم بعد المسافات ، و مفلحا في اختراق كل العوائق و الحواجز المعترضة له .

و تجلت عملية العنصرية و القمع الاستعماري الفرنسي ضد الجزائريين بمختلف الوسائل و الاشكال، ولا حققتهم حتى في مظلمة النفي، حيث اصدرت العفو بحق المنفيين و طبقته على الكومونيين فقط دون الجزائريين، ومنعت كل جزائري افلح في مغادرة كاليدونيا الجديدة من العودة الى الجزائر، و ايضا منعت التحاق كل عائلة جزائرية بفرداها بالمنفى رغم ان القانون يسمح بذلك مثل حالة عزيز بن الشيخ الحداد .

الهوامش:

¹- Benjamin Stora , **Algérie –histoire contemporaine 1830–1988** ,Editions Casbah , Algérie , 2004 , p26.

2 Chikh Bouamrane et Mohamed Djidjelli : **L’Algérie coloniale par les textes (1830–1962)**,– Edition A.N.E.P, Algérie,2008, p9.

³- يحيى بوعزيز ، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب ، منشورات دار الهدى للنشر والتوزيع ، عين مليلة ، الجزائر، 2013، ج 2 ، ص ص 105 - 107 .

⁴- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1860م-1900م ، ط خ ، منشورات عالم المعرفة، الجزائر، ج1، 2009م ، ص246.

⁵ - الحرب الفرنسية- الألمانية (البروسية): هي حرب دارت بين فرنسا وبروسيا في 19 جويلية 1870 بسبب أزمة العرش الإسباني، إنتهت بهزيمة فرنسا بعد خسارتها في معركتي سيدان (Sedan) ومدينة ميتز (Metz) وسقوط الجمهورية الفرنسية الثانية ، وقيام الثالثة (1870/9/4م) تم استسلام فرنسا في 1871/01/28م، أنظر: عبد العزيز سليمان نوار وعبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر، أوروبا - من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية ، منشورات دار النهضة العربية ، بيروت (لبنان)، ص ص 282 - 284.

⁶ - للاستزادة أكثر حول هذا الجفاف والأوبئة والمجاعات التي ضربت الجزائر ما بين 1867م-1870م ، أنظر:

-Djilali Sari , **Le désastre démographique de 1867–1868 en Algérie**, éditions E.N.A , Algérie,2010.

-Charles André Julien, **Histoire de l’Algérie contemporaine – la conquête et les débuts de la colonisation (1827–1871)** , éditions Casbah, Algérie,2005, p 453.

⁷- عبد المنعم القاسمي الحسني: الطريقة الرحمانية - الأصول والآثار منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى-، ط 1 ، دار الخليل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013 م ، ص 819.

⁸ - Chikh Bouamrane et Mohamed Djidjelli, op-cit,p62.

⁹- أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص254.

¹⁰ - الطريقة الرحمانية: هي واحدة من الطرق الصوفية التي كانت موجودة هنا بالجزائر ، ظهرت منذ العهد العثماني ، وقد أسسها محمد بن عبد الرحمان القشوطي الإدريسي الحسن الأزهرى ، حيث كان مسقط رأسه بمنطقة الزاوة (القبائل)، بآيت اسماعيل (جبال جرجرة) وقد سافر إلى الحج واستقر بمصر (بالأزهر) ، 25 سنة وتلمذ على يد شيوخه، عاد إلى الجزائر في 1769م واستقر بآيت اسماعيل ،زاويته التابعة للطريقة الخلوتية، وعرفت بالطريقة الرحمانية ، والتي لاقت صدى واسعا و انتشارا كبيرا بالجزائر ، وتوفي مؤسسها محمد بن عبد الرحمان عام 1794م بقرية علاوة (آيت اسماعيل)، ويقال أن البعض نقلوا رفاته ودفنوها بالحامة (الجزائر العاصمة)، ومن هنا حمل إسمه بوقرين، واستمرت الطريقة بعده. أنظر، بوعتو البشير، **التصوف في الجزائر- دراسة وصفية تحليلية للطرق الجيبية والهبرية والرحمانية والأويسية-** ، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، ج 1، 2013م، ص ص 394-395-396 .

¹¹ - للاستزادة حول هذه الفكرة راجع: عبد القادر صحراوي: **الأولياء والتصوف في الجزائر خلال العهد العثماني 1520م-1830م**، منشورات دار هومه، الجزائر، 2016م.

¹² - أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ص 255 .

13-Mouloud Gaid : Mokrani, Editions Mimouni, Algérie, 2012,p 105.

¹⁴ - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 254.

¹⁵ - يحي بوعزيز، ثورة الباشا محمد المقراني والشيخ الحداد عام 1871م، ط خ ، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر ، 2009م ، ص 226.

¹⁶ - Hadj Ali Mustapha , **Les Algériens en Nouvelle Calédonie** .

L'insurrection de 1871-, Edition El Amel, Algérie,p79

¹⁷ -Alain Mahé , **Histoire de Grande Kabylie XIX e- XX e siècle - Anthropologie historique de lien social dans les communautés villageoises** - , Editions E.D.I.F 2000 , Algérie ,2013 , p 191.

¹⁸ - أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق ، ص 260 .

19 Alain Mahé : op- cit ,p 200.

²⁰ - يحي بوعزيز، ثورة الباشا محمد المقراني والشيخ الحداد عام 1871م ، المرجع السابق ، ص 324.

- 21- نفس المرجع ، ص ص 324 - 325 .
- 22- نفس المرجع، ص ص 327 - 328.
- 23- المرجع نفسه، ص 329.
- 24 - بن زردة توفيق، حفريات حول السياسة الاستعمارية في الدول المغاربية، دار الهدى للنشر والتوزيع، عين مليلة ، الجزائر، 2022م، ص 81.
- 25- يحيى بوعزيز، ثورة الباشاغا مُجَّد المقراني والشيخ الحداد عام 1871م، المرجع السابق، ص ص 336 337.
- 26- نفس المرجع ، ص 339.
- 27-عمار يزلي، الثقافة في مواجهة الاحتلال -دراسة- ، منشورات السهل، الجزائر، 2009م ، ص 131.
- 28- مُجَّد أرزقي فراد ، إطلالة على منطقة القبائل ، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2007م ، ص 81 .
- 29- **Traité de police à l'usage des commissaires de police ,des maires, du personnel de la gendarmerie et des candidats au commissariat par Gaston Arexy**, Imprimerie de la librairie Dalloz , Paris , France, T 1 , 1925,p32.
- 30- Ibid , p 31.
- 31- يحيى بوعزيز، ثورة الباشاغا مُجَّد المقراني والشيخ الحداد عام 1871م ، المرجع السابق ، ص 325 .
- 32- **Traité de police à l'usage des commissaires de police ,des maires, du personnel de la gendarmerie et des candidats au commissariat**,op-cit,p31.
- 33-الصادق تاوي، المبعدون إلى كاليدونيا الجديدة - مأساة هوية منفية- نتائج وأبعاد ثورة المقراني والحداد ، ط 1 ، منشورات دار الأمة، الجزائر ، 2007م ، ص - ص 123 - 125 .
- 34-Rachid Sellal , Caledoun – terre de bagne des déportés algériens de Nouvelle –Calédonie- , Editions Casbah , Alger , 2013, p 48.
- 35- Rachid Sellal ,op.cit , pp 56 - 58

³⁶ -Traité de police à l'usage des commissaires de police ,des maires ,du personnel de la gendarmerie et des candidats au commissariat,op- cit,p35.

³⁷ - جرمان ميلي ، ترحيل قرويي وثوار القبائل الكبرى إلى كاليديونيا الجديدة، تر. آيت شعلال، منشورات دار ومركز الثعالي للدراسات ونشر التراث، الجزائر، 2013، ص 370 .

³⁸ - الصديق تاوتي، المرجع السابق، ص 141.

3- جرمان ميلي: المرجع السابق، ص 374-375

4- بشير فايد، " جوانب من حياة الشيخ سي عزيز ابن الحداد"، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، عدد 4 جوان 2006، ص 65-66.

5- نفس المرجع، ، ص 66-67.

1- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900، ط 1، ج 1، دار الغرب الإسلامي، 2000، ص 265.

2- نفس المرجع، ص ص 265-266..

⁴⁴-الصديق تاوتي، المرجع السابق، ص 143.

⁴⁵ -Rachid Sellal,op- cit,p104

⁴⁶ -الكومونيون :هم مجموعة من الثوار الفرنسيين الذين قاموا بعملية احتجاج و تمرد مسلح ضد الحكومة الفرنسية (الجمعية الوطنية) بباريس عام 1871م ، و الذين عارضوا معاهدة الاستسلام المشينة مع المانيا (معاهدة فرنسا) و ايضا كانوا يطمحون بعد سقوط الجمهورية الثانية في قيام نظام جمهوري بفرنسا فصدموا بالجمعية الوطنية تحت سيطرة اعضاء ملكيين ، و قد بدأوا تمردهم في مارس 1871م ، بالاستيلاء على اسلحة الجيش التي كانت موجودة هناك بباريس و انتهى هذا التمرد عندما استطاع الجنرال ماكماهون قمعهم بوحشية فيما بين 21 و 28 ماي و اوقع 20 الف قتيل منهم ، ما أدى إلى استسلامهم . للمزيد ينظر: ياسين زينون، "الحرب الفرنسية الالمانية 1870م -1871م) من منظور جول ميشليه (Joles Mechelet" ، دورية كان التاريخية ، السنة الثالثة عشر ، العدد الثامن و الأربعون ، يونيو ، 2020 ، ص 191.

⁴⁷ - Mehdi Lallaoui , **Algériens du Pacifique – Les déportés de Nowelle – Calidonie**, 2^{ème} édition , éditions Zyriab , Algérie , 2010 , P 199 –200 .

⁴⁸ - Criât de police a l usage des commissaires de police , des Maires du personnel de la gendarmerie et des candidats au commissariat , op- cit , p 32.

⁴⁹ -Ibid , p31.

⁵⁰ - Rachid Sellal : op – cit, pp 99 – 100

⁵¹ - Craité de police a l usage des commissaires de police , des Maires du personnel de la gendarmerie et des condidats au commissariat op- cit , p 32.

⁵² - جرمان ميلي ، المرجع السابق ، ص 417.

⁵³ -Rachid Sellal : op – cit p 101,102

⁵⁴ - Ibid , p 105

⁵⁵ - Hadj Ali Mustapha , op – cit,p

⁵⁶ - Rachid Sellal , op – cit, p 105.

⁵⁷ - يحي بوعزيز ، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر و العرب ، المرجع السابق ، ص 201

⁵⁸ - جرمان ميلي ، المرجع السابق ، ص 418.

⁵⁹ - نفس المرجع ، ص ص 418 – 419.

⁶⁰ - يحي بوعزيز ، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر و العرب ، المرجع السابق ، ص 206.

⁶¹ - نفس المرجع ، ص 201.

⁶² - Mehdi Lallaoui, op- cit , p 184.

⁶³ -Rachid Sellal , op – cit p 103.

⁶⁴ -Mehdi Lallaoui, op- cit , p 185.

⁶⁵ - يحي بوعزيز : موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر و العرب ، المرجع السابق ، ص 201.

⁶⁶ - نفس المرجع ، ص 105.

- ⁶⁷ - جرمان ميلي ، المرجع السابق ، ص 418.
- ⁶⁸ - يحي بوعزيز ، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر و العرب ، المرجع السابق ، ص 201.
- ⁶⁹ - Rachid Sellal , op – cit p ,106.
- ⁷⁰ - يحي بوعزيز ، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر و العرب ، المرجع السابق ، ص 205.
- ⁷¹ - نفس المرجع، ص105.
- ⁷² - Rachid Sellal , op – cit p 106.
- ⁷³ - يحي بوعزيز ، موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر و العرب ، المرجع السابق ، ص 205.
- ⁷⁴ - نفس المرجع، ص202.
- ⁷⁵ - Rachid Sellal , op – cit p 108.